الفصل الرابع
القدرات اللغوية في الدماغ

يقول بيكرتون "لو كانت أدمغتنا الهائلة مصدر ذكائنا، ولو كان هذا الذكاء قويا بحيث يستطيع تفسير تطور نوعنا البشري علي هذا النحو غير المألوف، لكان من السخف الافتراض بأن اللغة بوصفها مجرد وسيلة للتواصل هي التي أنتجته. وتبعا لذلك يجب أن يعزي الذكاء البشري إلي قدرات أخرى تكمن داخل تلك الأدمغة الهائلة. فما عسى هذه القدرات أن تكون؟ "[1]

يرفض بيكرتون أن تكون اللغة هي من أنتجت فينا الذكاء؛ بل يجب إرجاع الذكاء إلي قدرات كامنة فينا؛ تكمن داخل أدمغتنا. فاللغة ـــ من وجهة نظره ـــ منتج أنتجته قدرات كامنة، ثم يسأل عن هذه القدرات. وهذا الأمر هو ما نسعى إليه في هذا الفصل. وهو بيان القدرات الكامنة فينا. فالإنسان كي تكون له لغة فإن الله سبحانه وتعالى وهبه قدرات ميزته عن غيره من المخلوقات، وجعلت له لغة لم يكن الهدف منها التواصل وحده، بل لها وظائف أخرى معقدة لم نصل إلي جلها؛ علي الرغم من تقدمنا العلمي، آتتنا بسبب المهام التي كُلفنا بها، وأهمها عمارة الأرض. فكانت معينا عليها.

يقول تشومسكي "لم يكن دارون أول من استنتج (أن الحيوانات الدنيا لا تختلف عن الإنسان إلا في قدرة الإنسان غير النهائية تقريبا علي ربط أكثر الأصوات والأفكار اختلافا بعضها ببعض) وعبارة غير نهائية فعلا لكن دارون كان أول من صاغ هذا المفهوم التقليدي في إطار تفسير جديد للتطور البشري"[2] أشار دارون إلي القدرة التي لدى البشر دون غيرهم علي الربط بين الأصوات والأفكار المختلفة، لكنها لا تعدو أن تكون إحدى قدرات البشر اللغوية التي نناقشها في هذا الفصل؛ فجاء علي محاور هي:

- المحور الأول: أي نوع من المخلوقات نحن؟ (إننا المخلوق المبدع).

---

(١) اللغة وسلوك الإنسان:٤١

(٢) أي نوع من المخلوقات نحن ؟ : ٥٤

- المحور الثاني: القدرة التعبيرية لدى الإنسان والحيوان.
- المحور الثالث: القدرات الكامنة في مخ البشر.
- المحور الرابع: القدرات اللغوية الكامنة في المخ البشري.
- المحور الخامس: التعاون بين قدرة إصدار الصوت والترميز والتعلم.

المحور الأول: أي نوع من المخلوقات نحن؟ (إننا المخلوق المبدع)

سؤال سأله كثير من العلماء كان من بينهم ديريك بيكرتون الذي قال" برغم الجهود الحثيثة التي بذلتها العلوم السلوكية؛ فإننا مازلنا حتى اليوم نجهل من نحن ومن أين أتينا، وماذا حققنا، ولماذا." [1] ويقول في موضع آخر من كتابه "لنا أن نفعل أي شيء وكل شيء سوى أن نفسر ما نحن، ولماذا نحن علي ما نحن عليه، لأن هذا يستعصى علي التفسير؛ فما نحن هو بكل بساطة ما نختار أن نكون." [2] إنه يتساءل عن الإنسان المجهول عند نفسه، فدراسة بني البشر أصعب من دراسة المادة، فبني البشر ـــ كما يقول: أشياء خاصة تستعصي علي الفهم بطبيعتها ولا تخضع للقوانين التي تحكم الأشياء.

لقد وصل من أسئلته إلي هذه النتيجة "إن بني البشر نوع كسائر أنواع المخلوقات ظهر نتيجة للتطور البيولوجي الطبيعي، ومع ذلك فإن سلوكهم يختلف اختلافا جذريا عن سلوك باقي الأنواع في العديد من المجالات"[3] إنه متأثر برأي دارون.

ثم يشير إلي مدى الاختلاف بين البشر وسائر المخلوقات بدلائل قاطعة من القدرات الإعجازية التي يمتلكها البشر ولا توجد في سواهم من المخلوقات. إنه رد قوي منه علي القائلين بأن الإنسان قرد متطور. فعلينا أن ندقق في هذا القول "**إن كل من يقول إننا مجرد نوع آخر من المخلوقات يغفل المدى الواسع الذي يميز سلوك الإنسان وقوته. فمجالات السلوك عند المخلوقات الأخرى تنحصر في البحث عن الطعام والتوالد والعناية بالصغار وحمايتهم ...أما الإنسان فبالإضافة إلي قيامه بكل تلك الأمور بالطبع، إلا أنه يجري العمليات الحسابية، ويمارس الرقص والتجارة،**

(١) اللغة وسلوك الإنسان: (م)
(٢) اللغة وسلوك الإنسان: (س)
(٣) اللغة وسلوك الإنسان: (ع)

ويبني السفن ... ويقوم بأشياء تفوق الحصر لم يسبق أن قام بها نوع غيره من المخلوقات ... فلم لا تبني جماعات الشمبانزي السفن مثلا ولم تمارس قردة الأورانجوتان الرقص؟"[1]

هذا القول يوجه أنظارنا إلي حقيقة قد نغفل عنها فعلا؛ وهي حقيقة أننا نحن كبشر المخلوق المطور والمبدع الوحيد في الكون، هذا يكفينا كدليل علي أننا لسنا قردة. إننا كنوع من المخلوقات نختلف عن سائر خلق الله سبحانه وتعالى؛ بسبب ما نحن مكلفون به، فصناعة السفن وبناء المشاريع وغيرها؛ تدخل ضمن إحدى مهام الإنسان وهي عمارة الأرض. لهذا نتضامن مع بيكرتون في قوله: إن الإنسان مخلوق مختلف عن سائر المخلوقات نظرا لامتلاكه قدرات خاصة كامنة في مخه، أهمها القدرة علي الإبداع والخلق، ليقوم بالمهمة مكلف بها دون سائر المخلوقات، وهي عمارة الأرض.

هذه النتيجة التي ذكرتها آنفا؛ عجز بيكرتون عن الوصول إليها، فقال "وليس ثمة نظرية عن سلوك الإنسان تستطيع في الوقت الحالي أن تفسر هذه الأمور الغريبة ... وكثيرا ما يقال إن السمات التي تميزنا هي نتاج ذكائنا الفائق وقدرتنا المعرفية الفريدة ووعينا وتعقد أدمغتنا وهكذا ... (ولكن) من أين أتانا الذكاء؟ وكيف وصلنا إلي هذه الدرجة من الوعي والذكاء والقوى الذي جعل أدمغتنا علي هذا النحو من التعقيد؟ ولماذا يمنحنا هذا التعقيد الوعي والذكاء والقوى التي لا مثيل لها للسيطرة علي الطبيعة؟ ولماذا يختلف سلوكنا عن سلوك بقية الأنواع هذا الاختلاف الشاسع؟ إننا بلا شك عاجزين عن الإجابة عن كثير من هذا التساؤلات، ولا نملك فهما للعوامل الجوهرية التي تجعل الإنسان إنسانا!" [2]

ليس لهذه التساؤلات إلا إجابة واحدة أشرت إليها آنفا، وأكدها كل ما قاله بيكرتون دون أن يذكر حقيقتها وكنهها واسمها، إنها المهمة المكلف بها بنو البشر. عمارة الأرض؛ فيشير إلي آثار الإنسان المعمارية في الكون، ويقارنها بما صنعته كل

(١) اللغة وسلوك الإنسان: (ع / ف)
(٢) اللغة وسلوك الإنسان: (ف)

المخلوقات؛ ليجد الإجابة أنهم لم يصنعوا شيئا مما صنعه الإنسان. قال: لماذا نحن كذلك؟ و لم يجب.

إذن يجوز لنا الآن أن نقولها له ولغيره من العلماء الذي غضوا الطرف عن هذه الحقيقة:إن سبب اختلاف البشر عمن سواهم هو المهام التي كلفوا بها من الله سبحانه وتعالى عندما نزلوا إلي الأرض وهو عمارة الأرض، هذا رأينا رضي من رضي وأبى من أبى. نتيجة لهذه المهمة الشاقة؛ فقد زوده الله بقدرات لا توجد في غيره من المخلوقات، كان علي رأسها اللغة فكل المخلوقات تتكلم وتسبح بحمد خالقها، وتفكر في أمورها المعيشية، لكنها لا تبدع وتطور، لأنها لم تزود في قدراتها الدماغية بخاصية الإبداع.

لكننا نجده يسرع السير في هذا الطريق الذي أشرنا إليه آنفا وهو وجود قدرة فائقة لدى البشر مكنتهم من ذلك؛ فيقول موضحا سبب هذه الحيرة في الوصول لتفسير هذه القدرة التي لدينا "أسباب الارتباك الذي أشرت إليه ولأخفقنا في العثور علي تفسير ملائم لنوعنا لمجرد أننا حاولنا أن نفحص كل صفة من الصفات التي تميز ذلك النوع، كما لو كانت سمات منفصلة لا صلة بينها علي الإطلاق بدلا من كونها نتائج منطقية لقدرة هائلة واحدة تهيمن علي جميع تلك الصفات."[1]

أسباب ارتباكنا في فهم حقيقة نوعنا البشري؛ أننا فحصنا كل صفة من صفاتنا بصورة منفصلة؛ ففحصنا ما لدينا من ذكاء مقارنة بذكاء الحيوان، وفحصنا ما لدينا من صفة الكلام مقارنة بكلام الحيوان، وفحصنا ما لدينا من صفة التفكير مقارنة بتفكير الحيوان. وهذا أساس الخطأ الكبير الذي وقعنا فيه، فالإنسان يملك قدرة واحدة تشمل كل صفاتنا، وتميز نوعنا البشري، وهي التي تهيمن عليها كلها فكانت الصفات نتيجة منطقية لعمل تلك القدرة الهائلة التي لدينا والخاصة بنا والتي توجه سلوكنا في الحياة. فما القدرة الخاصة بنا كبشر والكامنة في أمخاخنا؟ إنها قدرتنا علي الإبداع وكفى بها قدرة.

---

(١) اللغة وسلوك الإنسان: (ف/ ص)

إننا كبشر مكلفون بمهمة أكبر وأعظم وأصعب من مهام كل المخلوقات؛ هي عمارة الأرض؛ لهذا زودنا الخالق سبحانه بقدرة هائلة تسيطر علي كل صفاتنا البشرية، وتوجه سلوكنا في الحياة، إنها القدرة علي الإبداع والتطوير والتجديد في كل شيء، فقد أمرنا سبحانه وتعالى أن تصنع ونخلق ونطور ونبدع، ثم وضعنا في مكاننا الحقيقي من بين مراتب الخالقين والمبدعين، فكانت مكانته سبحانه في أعلى وأحسن المراتب، **﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾** [المؤمنون: ١٤]، فلنا أن نبدع وأن نخلق، ولكن لا ننسى أنه أحسن الخالقين، فأين خلقنا من خلق الله! وأين إبداعنا من إبداع بديع السماوات والأرض!

لقد اعتبر بيكرتون اللغة نموذجا للقدرة البشرية المبدعة؛ فقال في مقدمة كتابه عنها "يقدم هذا الكتاب اللغة باعتبارها مثالا علي هذه القدرة."(١)

المحور الثاني: القدرة التعبيرية لدى الإنسان والحيوان

١- لغة الإنسان والحيوان: قارن بيكرتون بين لغة الإنسان ولغة المخلوقات، فذكر أن الإنسان تميز عن المخلوقات الأخرى بقدرة دقيقة علي التعبير عن القصد، والإبداع في التعبير، في مقابل قردة الفرفت كنوع من المخلوقات. فقال "من سوء الفهم أن يعزى إلي نظم التواصل عند الحيوان (وجميع ما يوصف خطأ بأنه لغة) تختلف عن اللغة الحق في أن وظيفتها تنحصر في التواصل. أما لغة الإنسان فتتمتع بقدرات إضافية."(٢)

ثم يقارن بين نظم التواصل عند الإنسان والحيوان قائلا "من الخطأ الاستنتاج أن القرود تنقل معلومات واقعية من خلال تلك الصيحات، بل علي العكس، فإن نظم التواصل عند الحيوان إما أن تعبر عن حالة المرسل في تلك اللحظة، أو تحاول التأثير في سلوك المستقبل. أما اللغة الإنسانية فلا تقف عند حدود التعبير عن رغبة الفرد أو مشاعره، ولا عند تأثير في الآخرين ... بل تعبر أيضا عن كم لا نهاية له من المعلومات التي لا تقتصر علي أرقام الهواتف والمهن والأذواق في اختبار الموسيقي وألوان الطعام،

---

(١) اللغة وسلوك الإنسان: (ص)

(٢) اللغة وسلوك الإنسان: ١ ــ ٢

بل وتشمل أيضا حجم الكرة الأرضية (الحقيقي) وعمر الكون (التقديري) والمبادئ الأساسية في التسويق والرياضيات وطبائع الخنافس وسلوك البروتونات والأحدث التي شهدتها مدينة مدريد يوم٢مايو/أيار عام ١٨٠٨م وهذه جميعها أشياء لا علاقة لها بما يريد المتكلم أو الكاتب في لحظة الكلام أو الكتابة."[١] ثم يخلص إلي قوله "إن وجود خاصية التعبير في اللغة ونظم التواصل عند الحيوان معا لا يعني بالضرورة إدراجهما ضمن الفئة ذاتها. فهما مختلفان حتى بالنسبة إلي وظيفة التواصل تبعا لما يستطيع أن يعبر عنه كل منهما وكيف يتم ذلك"[٢] إنها خاصية الإبداع التي لدى البشر في اللغة وغيرها؛ منَ يضخ لغة علي ألسنتنا تنضح بفكر، يميزنا ويجعلنا نوعا من المخلوقات مختلفا عنها كلها.

٢– مستويات التعبير عند الإنسان والحيوان: يقول "عندما تعبر اللغة عن رغبتنا أو حاجتنا أو مشاعرنا نراها تفعل ذلك بطريقة أدق بكثير من نظم التواصل الأخرى عند الحيوان. ويبدو أن معظم الحيوانات هي في المستوى الأول من قدرة التعبير عن القصد ... أما بنو البشر فيستطيعون تحقيق مستويات متقدمة تصل إلي المستوى الثالث أو أكثر من قدرة التعبير عن القصد، لأنهم قادرون علي قول أشياء أو التفكير بأشياء مثل "أريد فلانا أن يظن أنني أريده أن يصعد الشجرة، ولأنه مشاكس فإنه لن يفعل إذا ظن أنني أريده أن يصعد الشجرة، وهذا ما أريده في الواقع."[٣]

إن المستوى الثالث الذي يشير إليه هو ما نعني به القدرة الإبداعية في استخدام اللغة؛ هذه القدرة التي مكنته من البناء والتشييد والخلق، عن طريق التصور والتخيل.

ويشير إلي القدرة التي يتفرد بها الإنسان قائلا "لغة الإنسان نظام مفتوح، أما نظم التواصل عند الحيوان فمغلقة؛ بمعني أنه بغض النظر عن عدد الأشياء التي نستطيع أن نتكلم عنها، فإن باستطاعتنا دوما إضافة ما هو جديد صحيح أن نظم التواصل عند الحيوان ليست جامدة، ... لكن التغيرات القليلة التي تحدث تستغرق وقتا طويلا جدا، شأن التطور البيولوجي بصفة عامة. بينما أن التفكير بأشياء جديدة سيل لا ينقطع

(١) اللغة وسلوك الإنسان: ٥ ــ٦
(٢) اللغة وسلوك الإنسان: ٢
(٣) اللغة وسلوك الإنسان : ٧

عند بني البشر (كالتفكير مثلا بسعة الحاسوب الذي لم يكن معروفا قبل سنوات قليلة) إن قدرتنا المطلقة علي إضافة ما نشاء إلي لائحة موضوعاتنا، وعجز المخلوقات الأخرى في هذا المجال تدل علي اختلاف في النوع وليس فقط في الكم."[1] إن نظام اللغة البشرية قابل للتطور والتغير يوميا؛ ذلك أننا نضيف إلي لائحة موضوعاتنا مخترعات وابتكارات بأسماء جديدة.

المحور الثالث: القدرات الكامنة في المخ البشري

تكلم كثير من العلماء حول القدرات التي وهبها الله سبحانه وتعالى للبشر حتى يتكلموا، لهذا أحاول جمعها هنا لأجعلها محور دراستنا؛ وأجيب عن عدة الأسئلة: كيف دخلت اللغة إلي الدماغ؟ هل ولدنا مزودين باللغة أم اكتسبناها بعد ذلك فتصبح داخلة علينا؟ وكيف تم هذا وذلك؟ وما القدرات الكامنة في أدمغتنا التي مكنتنا من ذلك؟

الحقيقة أننا كي نمتلك اللغة فإننا جئنا إلي العالم مزودين بقدرات فطرية جينية أعطتنا القدرة اللغوية؛ لكن ما هي هذه القدرات الفطرية التي وهبنا الله إياها لنتكلم؟

إننا لا نعلم كثيرا عن قدراتنا اللغوية، فهناك أسرار كثيرة عن أنفسنا لا نعرفها، وسنظل لا نعرفها مهما نحاول معرفتها، وإن بدا لنا أننا نعلم كل شيء عنها، إنها من أسرار الله في خلقه؛ ونحن لا نحيط بشيء من علمه سبحانه إلا إذا شاء وأذن لنا. لكننا نحاول أن نعلم علَّهُ يأذن لنا فنتعلم. وكما قالوا: ما لا يُدرك كله لا يُترك كله.

هذه القدرات تشمل قدرات عامة تخص عمل المخ كنشاط وظيفي عام له؛ ونقصد بها كل العمليات العقلية التي تجعل المرء يتفاعل مع عالمه المحيط به. وقدرات خاصة تخص اللغة؛ وهي القدرات التي تمكن المرء من أن يتكلم، ويستخدم اللغة في التفاعل مع مجتمعه. ولنسميها "القدرات اللغوية".

لقد وهب الله سبحانه وتعالى الإنسان قدرات مختلفة؛ مكنته من أن يتكلم، لهذا يجب أن نبحث في القدرات التي في أدمغتنا؛ لنفهم كيف نتكلم؟ الإنسان لا يتكلم بلغته الأولى أو الثانية لأنه تعلمها أو اكتسبها من معلم ما، بل لأن لديه قدرات فطرية

---

(١) اللغة وسلوك الإنسان: ٩

متعددة خُلق بها؛ مكنته من اكتساب اللغة منذ قُبيل ميلاده، ذكرها العلماء في بحوثهم اللغوية، وعدوها مكونا فطريا للمخ البشري. صنعت قدرتنا اللغوية.

المحور الرابع: القدرات اللغوية الكامنة في المخ البشري

١- القدرة الكلامية: أشار وفاء البيه إلي القدرات التي وهبها الله للإنسان ليتكلم ضمن حديثه عن قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) يقول "أحد معاني هذه الآية الكريمة يفسر لنا أن الكلام هو أهم القدرات الرئيسية الفذة التي وهبها الله سبحانه وتعالى للإنسان، ليستطيع أن يدرك ويفكر ويعبر عن معاني أو مدلولات ما في ذهنه من الأفكار، وما حوله من مظاهر وعما يحس به من انفعالات حسية أو معنوية. يتم ذلك بواسطة مجموعة من الرموز والصور الصوتية التي تمثل المعاني المختلفة، وذلك من خلال ظاهرة صوتية حقيقية محسوسة أو حدث واقعي أو تعبير صوتي ظاهر ألا وهو نطق أصوات لغة الكلام."[١]

إنه يري الكلام قدرة فذة لدى الإنسان؛ وأن هذه القدرة تظهر لديه من خلال قدرته علي الترميز الصوتي؛ فالأمر يبدأ بقدرة ترميزية صوتية بتحويل الصوت الذي ينطق به إلي قيمة دلالية تحقق له التواصل مع غيره، وهذه قدرة حقا فذة لا يمتلكها سواه.

٢- القدرة المعرفية: يرى ديكون أن الإنسان يتمتع بقدرة معرفية تمكنه من التفكير. يقول" إن الخاصية المحدِّدة للبشر هي القدرة المعرفية التي لا نظير لها، نحن نفكر علي نحو مختلف عن كل الكائنات الأخرى علي سطح الأرض، ونستطيع أن نتقاسم الأفكار بعضها مع بعض بوسائل لا تدانيها علي الإطلاق الأنواع الأخرى" [٢]

من هذا المدخل ينطلق ديكون ليحدثنا عن قدراتنا كبشر، أولها وأهمها القدرة المعرفية، وحقيقة الأمر أنها ليست قدرة معرفية؛ بل رغبة كامنة في أمخاخنا في التعلم؛ لتصبح تلك القدرة وسيلتنا إلي جمع المعرفة بشتى أنواعها وتدوينها في أمخاخنا.

---

(١) أطلس أصوات اللغة العربية: ١٢

(٢) الإنسان . اللغة . الرمز:٢٥

٣- القدرة علي التفكير الترميزي والترميز الصوتي:

أ- القدرة علي التفكير الرمزي: هي توظيف المعرفة المدونة بالمخ في عمليات التفكير؛ بتحويل الأفكار إلي رموز نفكر بها؛ فنصنع منها عالمنا الجديد، بكل إبداعاته. "فاللغة ليست مجرد نمط للاتصال، وإنما هي أيضا التجلي الصريح لنمط الفكر، وهو نمط غير مألوف؛ أي التعبير الرمزي؛ إذ بدون الرمز يغدو كل هذا العالم الخائلي الذي نتحدث عنه بعيد المنال ... أن الفكر الرمزي لا يتوفر كشيء مدمج فطريا في الإنسان، بل يتطور عن طريق استدخال العملية الرمزية التي تشكل أساسا للغة."(١)

الفكر الرمزي ليس مدمجا فطريا في الإنسان، بل يكتسبه بالتعلم، فيتعلم أولا ثم يفكر في ما تعلم، ويطور فيه، فيدخل التعلمُ عمليات رمزية إلي مخه والتي تشكل أساس لغته، فاللغة نتاج عملية سابقة عليها هي عملية الترميز وكلاهما مكتسب (الترميز واللغة) نحن نحوِّلُ كل ما في عالمنا إلي رموز نرمز بها إليه، إذن اللغة هي التجلي الصريح لما نفكر فيه، تخرجه للعالم في شكل رموز يعبر بها عنه، حيث نحول أفكارنا إلي رموز نتحاور بها أولا مع أنفسنا.

إن قدرة الإنسان علي تحويل الأفكار إلي رموز يفكر بها تحتاج إلي وقفة؛ فهو يرمز ليفكر فيخرج فكره في صورة لغة نسمعها وتشير إلي ناتج عملية التفكير الداخلي، لكن الأمر ليس كذلك، فالإنسان يملك القدرة علي الترميز كقدرة مكتسبة. وينقسم الترميز لديه إلي نوعين هما: ترميز إشاري وترميز صوتي، فهما ناتج عمل قدرة فطرية لديه هي القدرة الترميزية، ليصبح هذا الناتج بنوعيه وسيلة لتواصله مع مجتمعه.

ب) القدرة علي الترميز الصوتي: هي القدرة التي تحقق تواصلنا مع الأشياء في غيابها؛ فجعلنا لكل شيء رمزا يشير إليه. وأن هذه القدرة علي الترميز فطرية، ومدمجة في العقل البشري، وهي تشكل أساسا للغة، فمن لا يستطيع أن يصنع رمزا لغويا صوتيا، لا يمكنه أن يتكلم ويبدع ـــ كما يري ديكون ـــ وهو رأي فيه خلاف.

ج) يبين ديكون قيمة عملية الترميز اللغوي في تحقيق التواصل قائلا "إن الطريقة التي تمثل بها اللغة الأشياء والأحداث والعلاقات تزودنا ببطاقة اقتصادية فريدة علي

---

(١) الإنسان . اللغة . الرمز:٢٧

الاستبدال، إنها تهيئ لنا وسيلة توليد صور متباينة لانهائية من التمثيلات الجديدة، كما تزودنا بقدرة استدلالية غير مسبوقة للتنبؤ بالأحداث وتنظم الذكريات وتخطيط السلوك."[١] إنها عملية استبدال للشيء برمز صوتي نعبر به عنه، ونتحاور بها ونتواصل.

٤ــ اللغة قدرة فطرية: هل اللغة قدرة فطرية؟ يقول ديكون "يبدو أن الباحثين في مجال اللغة توصلوا إلي توافق في الآراء بأن اللغة قدرة فطرية، ورأوا كذلك أن المعرفة الفطرية تسهم بقدر كبير يمكنه أن يفسر لنا قدرتنا علي التعلم مثل هذه المنظومة المعقدة للاتصال، وبديهي أن الأطفال يدخلون العالم ولديهم استعداد سابق لتعلم اللغات البشرية، ... ويبرهن هذا علي أن أمخاخ البشر وفدت إلي العالم مجهزة بشكل خاص ومحدد لهذه الوظيفة، وطبيعي بأن قليلين سوف يجادلون بشأن هذا المصطلح فطري."[٢]

ذكر ديكون أن اللغة قدرة فطرية؛ وأكد علي هذا مرات عديدة في هذا النص، وهذا القول مردود عليه؛ فهي ليست فطرية؛ بل هناك قدرات[٣] كامنة في أمخاخنا هي الفطرية، أما اللغة فهي مكتسبة. ويقول: إن المعرفة قدرة فطرية؛ وهذا غير صحيح، بل إن المعرفة كمعلومة داخلة علي المخ مكتسبة أيضا لتعلم كل اللغة. أما القدرة علي التعلم فهي قدرة فطرية كامنة في أمخاخ البشر تفرض عليهم اكتساب كل شيء في عالمهم المحيط بهم بالتعلم. وذكر أن الأطفال يأتون إلي الحياة ولديهم قدرة أو استعداد فطري لتعلم أي لغة من لغات البشر؛ وهذا صحيح، فالطفل يبدأ بالتعلم قبيل ميلاده لأنه مزود بيولوجيا بهذه القدرة علي التعلم واكتساب كل جديد من حوله. ويقول: إن أمخاخ البشر وفدت إلي العالم مجهزة لهذه الوظيفة (اللغة)، بقدرتهم علي التعلم. وهذا القول صحيح، وهذا ما نسميه بالإعداد مسبق للمخ للتعلم واكتساب كل المهارات والخبرة ومنها اللغة.

---

(١) الإنسان . اللغة . الرمز:٢٧

(٢) الإنسان . اللغة . الرمز:١٨٣

(٣) كالقدرة علي التعلم والترميز والتفكير والتعميم والاستنتاج، وغيرها من القدرات التي سنشير إليها في موضعها.

هذا القول يوضح عمق فهمه للغة، وكيف نشأت في أدمغة البشر قبيل ميلادهم. ويصف اللغة أنها فطرية. لكنني أري أنها مكتسبة كسائر المعارف. كما أنه يربط بين اللغة والاستعداد الفطري لتعلم اللغة، لكن الاستعداد الفطري للتعلم لدى البشر ليس مقصورا علي اللغة. فالإنسان لديه استعداد فطري لتعلم كل العلوم والحرف ومنها اللغة.

ولكن هناك رأي يخالف رأي ديكون في قضية فطرية اللغة، حيث يري أن اللغة ليست قدرة فطرية، وإنما الفطري هو القدرة علي التعلم الموجودة ضمن جيناتنا الوراثية، ومن هؤلاء العلماء جيرت وآخرون الذين أشاروا إلي أن القدرة اللغوية ترجع إلي قدرة فطرية أكبر هي القدرة علي التعلم؛ وقد أودعها الله سبحانه في الإنسان، فالقدرة اللغوية تأتي من قدرة أكبر هي أساسها وهي القدرة علي التعلم، وتنطلق منها، والقدرة علي التعلم موجودة جينيا في البشر، فهم لديهم قدرة فطرية وجينية ملحة داخلهم للتعلم، وطلب المعرفة، وفي المقابل لا توجد جينات لغوية ضمن جيناته الوراثية، بل جينات تعلم، وانطلاقا من رفضهم أن تكون هناك جينات لغوية؛ لهذا فهم يرفضون وجود جينات خاصة بأبنية النحو، وهم بهذا يشيرون إلي رفضهم لمسألة النحو الكلي. فلا يوجد جين ضمن جينات الطفل الوراثية. يقولون "ويستطيع المرء أن ينطلق من أن القدرة اللغوية لدى الإنسان فطرية، وتوجد ميول سابقة جينية ... وعوامل كتابة مهمة، تلائم اكتسابا للغة ليس به خلل، ولا يوجد في الواقع جينة لغوية. ويتأمل في أن تطور القدرة اللغوية من الممكن أن تلائم من خلال تحول جيني ... حيث تقع القوة الجينية للقدرة اللغوية في امتلاك استراتيجية تعلم معين بشكل أولي من أن تقع في المعرفة بأبنية نحوية."[1]

وهو يشير إلي عملية أخرى؛ هي عملية التحول الجيني، حيث تتحول القدرة اللغوية إلي صفة جينية وراثية؛ وذلك عند امتلاكها استراتيجية القدرة علي التعلم؛ فتصبح مثلها صفة جينية متوارثة. وهذا موضع نقاش بين العلماء نذكره في موضعه من الدراسة.

---

(١) علم اللغة الإدراكي نظريات ونماذج ومناهج: جيريت ريكهايت وآخرون، تر/ د. سعيد البحيري، زهراء الشرق، ٢٠١٧ ص١٣١

٥- القدرات اللغوية عند تشومسكي: يذكر تشومسكي مفهومه عن اللغة أنها مجموعة من القدرات وليست قدرة واحدة، فهي القدرة علي الترميز الصوتي، وهي القدرة علي إصدار الصوت والإبداع والتعلم وغيرها، وقد اعتبرها داخلة ضمن الإعداد الأحيائي المشترك للبشر "فالمسلمة الراسخة التي تقضي بأن القدرة علي اللغة تعتمد علي الإعداد الأحيائي المشترك."[١]

إن القدرة اللغوية للإنسان التي أصبحت من المسلمات؛ ترجع إلي تكوينه وإعداده الأحيائي؛ فالإنسان يتكلم لأنه زُوِّدَ بقدرات فطرية ضمن إعداده من قِبَل خالقه سبحانه وتعالى ليتكلم. إن القدرة التي أقرها تشومسكي وأرجعها إلي الخالق؛ هي أساس تفسيرنا لوجود اللغة الإنسانية؛ ومحور دراستنا للغة، ومفهوم اللغة عندي؛ لذا سأناقش القدرات اللغوية التي ذكرها تشومسكي والتي لولاها ما اكتسبنا اللغة. وهي:

أ- القدرة علي الترميز الصوتي:

يقول تشومسكي "و لم يكن دارون أول من استنتج أن الحيوانات الدنيا لا تختلف عن الإنسان إلا في قدرة الإنسان غير النهائية تقريبا علي ربط أكثر الأصوات والأفكار اختلافا بعضها ببعض ... والواضح أن تلك القدرة غير النهائية حلت في دماغ نهائي"[٢]

إن سر اللغة الذي نقله تشومسكي عن دارون؛ أن لدى الإنسان قدرة علي الربط بين الأصوات والأفكار؛ وهو أمر هام، فيشير إلي قدرة الإنسان علي تحويل الأصوات العفوية التي تصدر من جهازه النطقي إلي أصوات موظفة ذات دلالة محددة تحقق له التواصل مع غيره، حيث يربط بين الصوت كرمز منطوق والشيء الذي يرمز إليه، وهو ما أعنيه بقولي القدرة علي الترميز الصوتي التي توجد لدى الإنسان.

ثم يسند التعريف نفسه إلي علم الإدراك قائلا "نجد إجابة مماثلة تشيع الآن في علم الإدراك المعاصر. إذ ليس غريبا في الدراسة الشائعة عن تطور اللغة الآن أن يفتتح الدارسون ما يكتبونه بالقول (إننا نفهم اللغة علي أنها مجموعة كاملة من القدرات لربط الصوت بالمعني ويشمل ذلك المعيار الذي يدعمها)" [٣].

---

(١) أي نوع من المخلوقات نحن؟:٦٠

(٢) أي نوع من المخلوقات نحن؟:٥٥

(٣) أي نوع من المخلوقات نحن؟: ص٥٦

ب- القدرة علي الإبداع: يذكر تشومسكي قدرة أخرى من القدرات اللغوية، وهي الإبداع الذي ينتج عن الاستخدام المستمر للغة؛ فاستخدم اللغة بكثرة يؤدي إلي إظهار القدرة الإبداعية التي لدى الإنسان، يقول "ولم يلبث الاكتشاف نفسه والاهتمام الأعمق بالطابع الإبداعي لاستخدام اللغة العادي أن صار عنصرا مركزيا في الفلسفة العلمية لديكارت، بل كانا معيارا رئيسا للقول بوجود الذهن بصفته جوهرا مستقلا، ... ليس من سبب اليوم للشك في الفهم الديكارتي الأساسي بأن لاستخدام اللغة طابعا إبداعيا، أي أنه بطبيعته ابتكاري من غير قيود، وملائم للظروف التي يحدث فيها، لكنه ليس نتيجة لها - وهذا فارق جوهري - " (١)

إن الفائدة التي يجنيها الفرد من كثرة استخدامه اللغة هي إكسابه القدرة علي الإبداع؛ واللغة الدافع والمنشط والمجدد لعملية الإبداع الدائم في المخ البشري؛ فالإنسان لديه قدرة فطرية علي الإبداع مكنته من أن يبدع كل يوم في كل شيء في حياته ويطور فيه وأهم إبداعاته كانت في مجال اللغة. إن متكلم اللغة تظهر لديه في كل لحظة أمور يريد أن يعبر عنها؛ فتدفعه الحاجة التعبيرية إلي ابتكار عبارات ربما لم يسمع بها من قبل؛ يعبر بها عن تلك الحاجة التي تعنَّ له في اللحظة الآنية.

ج- القدرة علي التحكم في المجرى الصوتي: من القدرات اللغوية التي ذكرها تشومسكي في قوله "يبدو أن القدرة علي التحكم بالمجرى الصوتي من أجل التكلم خاصة بالبشر، فلا يمكن أن تكون تلك الحقيقة المهمة جدا بسبب استقلال إنتاج اللغة البشرية عن الوسط الذي تتحقق من خلاله ... لكن المؤكد أن ثمَّ خصائص إدراكية أكثر عمقا تدخل في اكتساب اللغة وتصميمها." (٢)

إن ملاحظة قدرة الإنسان علي التحكم في مجرى الصوت تدل علي دقة تشومسكي العالم الكبير في إدراكه لقدرات الإنسان اللغوية دقيقة تكاد تكون مخفية علي الجميع؛ وهذه القدرة هي التي تمكن الإنسان من إنتاج أصواته حسبما تفرض عليه قواعد لغته، وتمكنه أيضا من تقليد أصوات الآخرين؛ بالتحكم في مجرى أصواته

---

(١) أي نوع من المخلوقات نحن؟: ص٥٨

(٢) أي نوع من المخلوقات نحن؟ :٦٣

ليوافق صوته صوتهم، ولا يوجد من مخلوق يستطيع تقليد صوت مخلوق آخر من غير بني جنسه إلا الإنسان.

ويشير تشومسكي إلي استقلال عملية إنتاج الصوت عن أعضاء النطق؛ فهي لا تتحكم في مجرى الصوت، بل إرادة المتكلم عندما يريد أن ينطق بصوت ما، أو أن يقلد صوت فلان؛ فهذا ما يجعله ينتج الصوت بهذا الشكل؛ فيعدل من وضعية أعضاء نطقه التي تستجيب له؛ فينطق الصوت الذي يريده. ثم يشير إلي عملية كبرى لدى الإنسان وهي عملية الإدراك فهي أساس عملية اكتساب اللغة وتصميمها، فلا بد له أن يسمع ويدرك بحاسة السمع الصوت ليكتسبه، فيبني من هذا الصوت وغيره تصميم لغته. وهنا يبدو مدى حفاوة تشومسكي بعملية الإدراك وإرجاع كثير من القدرات اللغوية إليها.

وخلاصة رأي هؤلاء العلماء أنه توجد قدرات متنوعة كامنة في أمخاخ البشر تصنع فيهم القدرة اللغوية، ذكر هؤلاء العلماء بعضا منها، لكنني أضيف إليها قدرات أخرى، تضاف إلي القدرات التي ذكرها العلماء ما وصلت إليه الدراسات التي قامت حول البنية العصبية اللغة للإنسان، من خلال علم الأعصاب والتشريح وغيره، وأهم هذه القدرات:

١- القدرة علي إصدار الصوت. ٢- القدرة علي الترميز صوتي.
٣- القدرة علي التعلم والتعليم. ٤- القدرة علي التفكير (تعميم واستنتاج)
٥- القدرة علي بناء تصورات ذهنية. ٦- القدرة علي الإبداع والخلق.

إنها القدرات التي مكنت الإنسان من التكلم؛ لتصبح اللغة أهم الأشياء التي اكتسبها الإنسان وتعلمها بفضل هذه القدرات؛ فاللغة مكتسبة وداخلة عليه. هذه القدرات يجب أن نخصها بالبحث والدراسة، فهي التي تصنع للغة وجودا في أمخاخ البشر؛ فلولاها لما كانت هناك لغة للبشر قط. لهذا يجب دراسة كل قدرة منها بصورة مستقلة.

المحور الخامس: التعاون بين قدرة إصدار الصوت والترميز والتعلم

إن عملية الكلام تحتاج إلي تعاون بين هذه القدرات، فلو أخذنا مثالا بسيطا ندلل به علي التعاون بين ثلاث قدرات فقط هما: القدرة علي الترميز والتعلم وإصدار

الصوت؛ فسنجد أن لكل قدرة من القدرات الثلاث خصائصها ودورها في عملية الكلام، فهناك فرق بين القدرة علي إصدار الصوت والقدرة على الترميز، والقدرة علي التعلم. وعلي الرغم من هذا فإن هناك تعاونا بين القدرات الثلاث لإتمام عملية الكلام علي النحو الآتي:

القدرة علي إصدار الصوت: تمكننا من إصدار الصوت، وهي موجودة لدى كل البشر؛ حتى الأبكم لديه هذه القدرة؛ هي أساسية لعملية الكلام فلا كلام دون صوت.

القدرة علي الترميز الصوتي: وهو الترميز الذي علمها الله تعالى لآدم عليه السلام ثم ورثه لبنيه؛ وهو يختلف عن الترميز الإشاري، وكلاهما موجود لدى كل البشر؛ ولكن الترميز الإشاري موجود كوسيلة تواصل أساسية لدى الأبكم، لذا فهو قادر علي صنع رمز إشاري للشيء غير المنطوق (باليد والوجه). يمكنه من استحضار الشيء الذي يريده دون إشارة صوتية.

القدرة علي التعلم: هي قدرة يتعلم بها الإنسان كل شيء في حياته؛ فهي رغبة داخلية فيه تصل أحيانا إلي حد التطفل علي الآخرين لمعرفة كل شيء عنهم؛ إنها ثورة داخل كل إنسان تسمي (ثورة التعلم)، فهو يعرف كل شيء عن أصدقائه وجيرانه، فكان حرصه علي تعلم اللغة آت من رغبة ملحة لديه؛ لهذا تعلم كيفية تحويل الصوت إلي رمز للشيء.

لقد وضع الله سبحانه وتعالى في الإنسان القدرة علي إصدار الصوت؛ كقدرة أساسية فطرية عفوية فيه؛ ليصبح قادرا علي إصدار كل الأصوات، وكذا القدرة علي الترميز بشكل عام؛ فهو قادر علي وضع رمز صوتي أو إشاري للأشياء؛ وهي آلية فطرية داخله أيضا؛ فكل إنسان يستطيع أن يُرمِّز الأشياء، فيعطيها رمزا صوتيا يشير إليها؛ ثم وضع فيه الرغبة والحرص علي التعلم؛ لتصبح تلك القدرة وسيلته لمعرفة عالمه.

ليس هذا فحسب؛ بل أكسبه القدرة علي تحويل الصوت إلي رمز، يشير به إلي كل أشياء عالمه، هذا الأمر الجديد والدخيل علي بنائه الفطري (أي الترميز الصوتي) هو ما يحتاج إلي تدريب عملي؛ بإحضار الشيء الذي يُراد تسميته أمام المُتدرب؛ ثم يُطْلِق المدربُ الرمزَ الصوتي الذي سيصبح بديلا عن الشيء واسما له، فلو ذُكر الاسمُ

حضر المسمي الذي يشير إليه إلي ذهن المستمع، فالربط بين الاسم والمسمي؛ أي الرمز الصوتي وما يرمز إليه؛ من خلال حاسة البصر والسمع في عملية عقلية تتم داخل المخ وبه.

لهذا علم الحق سبحانه الأسماء لآدم عليه السلام؛ بإحضاره كمتعلم؛ وإحضار المسمي (الشيء المراد تسميته)؛ لتتم عملية التعليم، وذلك بالربط الذهني بين الصورة البصرية للشيء؛ والصورة السمعية ليصنع له رمزا صوتيا خاصا به؛ فيصبح اسما له، وهي الطريقة المثالية في تعلم أي لغة، يستخدمها كل البشر في تعليم اللغات وتعلمها، بإحضار المسمى أمام المتعلم، ثم ينطق المدرب بالرمز الصوتي الخاص به. هنا تتم عملية إدخال شيء جديد إلي ذهن المتعلم لم يكن لديه من قبل كمعلومة مكتسبة، هذا يعني ضرورة أن تكون اللغة داخلة علي الدماغ ومتعلمة؛ وذلك لتمكن المخ البشري من استيعاب واكتساب كل جديد في عالمه، فلو كانت اللغة مودعة فينا كألفاظ وتراكيب؛ لألغى ذلك فينا قدرة أخرى؛ هي القدرة علي إبداع كل جديد في اللغة كل يوم، ولا نستطيع مواكبة العالم بكل ما يحدث فيه من جديد. فلا نخترع آلات ولا أسماء لتلك الآلات.

لهذا احتاج الإنسان إلي عملية تعلم ومعلم؛ لأنها مهارة جديدة يكتسبها المتعلم نتيجة عملية التعلم، وهي مهارة الترميز الصوتي، وهي عملية لغوية، حيث يضع لكل شيء رمزا صوتيا؛ يتكلم ويحاور به، وتعد اللغة (كرموز صوتية) بديلا للرمز الإشاري الذي لدى الأبكم يلجأ إليها لعجزه عن أن يوظف الأصوات التي يصدرها عفوية، لتصبح رموزا صوتية لها معني في عالمه، يتواصل بها مع الآخرين، لأنه لم يسمع لغة قط؛ فيستخدم الرموز الإشارية بديلا عن الرموز الصوتية، ولكن الرموز الإشارية تعجز وحدها عن أن تحقق التواصل بصورة أكبر وأكثر دقة بين البشر، فإذا جاء الليل، فإنه يعجز عن التواصل مع غيره. لقد كانت اللغة الناتجة عن الترميز الصوتي؛ والتي تحتاج إلي معلم ومتعلم وبرامج تعليم يصنعها الآن البشر عند تعلمهم لغة غيرهم، هي الوسيلة السحرية التي علمها الله تعالى لآدم؛ ليتواصل بها مع بنيه لعمارة الأرض، لهذا كانت اللغة مكتسبة.